مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 13 / العـدد: 02 (2023)، ص 110 - 131

شعرية الانزياح في الوصف عند ابن خفاجة

مسكين توفيق*
جامعة محمد بوضياف - المسيلة (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2021/12/06 تاريخ القبول: 2022/10/22

ملخص:

يتناول هذا المقال موضوع "شعرية الانزياح في الوصف عند ابن خفاجة"، وتهدف هذه الدراسة إلى قراءة شعره قراءة جديدة تستظهر خفاياه وتبينها، وقد اعتمدت على آليات المنهج البنيوي وتحليل الخطاب، فتطرقت إلى مفهوم الشعرية عامة ثم تحديدها عند كل من الغرب والعرب، ثم عرجت إلى تعريف الوصف كظاهرة في الأدب لغة واصطلاحا، متناولا أهم خصائصه المميزة، كما أفردت جزءا من الدراسة للوصف عند ابن خفاجة الأندلسي وصولا إلى جماليات الوصف عنده، وذلك بغية فهم دلالات الانزياح التركيبي في شعر الوصف لديه، ومتوسما مجموعة من النتائج التي تم الوصول إليها.

الكلمات المفتاحية: ابن خفاجة، الوصف، الطبيعة. الصور البيانية، المحسنات البديع

Abstract:

This article deals with the topic "Poetics of displacement in description according to Ibn Khafaja." This study aims to read his poetry with a new reading that reveals its mysteries and clarifies them. It relied on the mechanisms of the structural approach and discourse analysis, so it dealt with the concept of poetry in general and then defined it in both the West and the Arabs, then stopped To define description as a phenomenon in literature, language and convention, dealing with its most distinctive features, and I devoted part of the study to the description of Ibn Khafajah al-Andalusi, to the aesthetics of his description, in order to understand the indications of compositional displacement in his description poetry, and tagging a group of the results that have been reached.

Key words: Ibn Khafajah, description, nature. Graphic visual enhancements

* مسكين توفيق.

1.مقدمة

يعد الشاعر "ابن خفاجة الأندلسي" من كبار الشعراء الذين كتبوا في فنون الشعر المختلفة، وكان من أهمها الوصف، فاعتبر وصافا حاذقا، ورساما بارعا، كونه أجاد في وصف الطبيعة التي استهوته وسلبت كيانه، فلم يكن هناك معنى من معاني الوصف إلا وأخذ بناصيته، وقد كانت أوصافه متنوعة بين وصف الطبيعة الصامتة والمتحركة، معبرا عنها بألفاظ عربية فصيحة، مردفا إياها صورا بلاغية تشع فصاحة وبيانا، وقد استطاع بذلك أن يشد إليه انتباه القراء والمستمعين، ومن هذا المنطلق أردنا أن نسلط الضوء على جزء من هذا الموضوع.

2.ماهية الشعرية:

يعد مصطلح الشعرية من المصطلحات التي يصعب تحديدها بشكل محدد، ففي أصلها اللغوي تعود إلى الجذر الثلاثي"شعر"، وقد ورد في معجم مقاييس اللغة أن" الشين والعين والراء أصلان معروفان، يدل أحدهما على ثبات، والآخر على عِلْمٍ وعَلَم...والأصل قولهم شعرت بالشيء، إذا علمتَه وفطِنتَ له[1]، ولم تبتعد مختلف المعاجم اللغوية عن هذا المعنى يقال:" ليت شعري أي ليت علمي أو ليتني علمت، وليت شعري من ذلك أي ليتني شعرت"[2]. وتعتبر الشعرية في طليعة المصطلحات الجديدة التي" تبوأت مقاما أثيرا من اهتمامات الخطاب النقدي المعاصر "[3].

ويعتبر أول من استخدم مصطلح الشعرية في التراث الغربي "poétics" هو أرسطو في كتابه فن الشعر، وقد تعرض من خلاله إلى تحديد المبادئ الأولية العامة، ومن ثمة التدرج إلى جزئيات الموضوع، ويعد موضوع كتاب أرسطو في الشعرية هو التمثيل وليس الأدب ولهذا ليس كتابا في نظرية الأدب" [4]، ورغم ذلك فقد اعتبر كتاب فن الشعر المحاولة الأولى لتنظير الأدب إلى أن تأسست المحاولة الثانية والجادة على يد الشكلانيين الروس ، الذين قاموا بالبحث عن البنى الأدبية المتحكمة في النص والمسيطرة عليه.

والمتطرق لمفهوم الشعرية العربية يدرك بأن التراث العربي القديم من العصر الجاهلي، حتى بداية القرن العشرين هو أدب شعري أساسا، بالرغم أنه لم يتم تداول الشعرية كمصطلح في نقدنا العربي "إلا بعد مروره بمراحل ثلاث:

1- مرحلة التقبل: وفيها يتم تعريب المصطلح إلى بويطيقا

2- مرحلة التفجر: وتمت في هذه المرحلة ترجمته إلى فن الشعر

3- مرحلة الصياغة الكلية: وتم تداوله كما هو الآن "الشعرية""[5]

ولما كان أرسطو المرجع المميز الذي أثر بأفكاره على الدارسين العرب ومنهم الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم. ويعد الفارابي من الأوائل الذين أولو عناية كبيرة للشعر من خلال نصوصهم، اذ يقول: " والتوسع بالعبارة تتأثر الألفاظ بعضها ببعض وترتيبها وتحسينها، فتظهر حين ذلك الخطيبة أو الخطابية أولا، ثم الشعرية قليلا قليلا"[6].

3.ماهية الوصف:

1.3.لغة:

سنورد فيما يلي بعض ما جاء في هذا الشأن:

ورد في معجم لسان العرب" وَصَف الشّيءَ لَهُ وَعليه وَصفا وَصِفة: حَلاّه، والهاء عوض من الواو، وقيل الوَصف المِصدر والصّفة الحِلية، الليث: الوصف وصفك الشيء بحليته ونعته. وتواصفوا الشيء من الوصف"[7]

وجاء في كتاب العين:" الوصف: وصفك الشيء بحليته ونعته، ويقال للمُهر إذا توجه لشيء من حسن السيرة: قد وصف، معناه: انه قد وصف المشيأي وصفه لمن يريد منه، ويقال: هذا مُهر حين وَصَفَ"[8].

بينما جاءفي القاموس المحيط: " وصفه يصفه وصفا وصفة: نعته، فاتصف، ...والصفة: كالعلم والسواد، وإما النحاة فإنما يريدون بها النعت، وهو اسم الفاعل والمفعول، أو ما يرجع إليهما عن طريق المعنى، كمثله وشبه"[9].

وفي المعجم الوسيط: "وصف المهر والناقة ونحوهما، (يصف) وصفا، ووصوفا: أجاد السير وجد فيه، ووصف الصغير المشى وصفا: أطاقه. ووصف الشيء: وصفا وصفة: نعته بما فيه. ووصف الطبيب الدواء: عينه باسمه ومقداره. ووصف الخبر: حكاه . و وصف الثوب الجسم: اظهر حاله وبين هيئته"[10].

أما في القاموس المحيط فقد ورد أنالوصف:" عرض وتقديم الأشياء، والكائنات والوقائع، والحوادث (المجردة من الغاية والقصد) في وجودها المكاني عوضا عن الزمني، وأرضيتها بدلا من وظيفتها الزمنية، وراهنيتها بدلا من تتابعها، وهو تقليديا يفترق عن السرد والتعليق"[11].

فيما جاء في المعجم المفصل في الأدب ان: "الوصفهو الكشف والإظهار، فإذا قالوا: وصف الثوب الجسم فقد أرادوا انه نم عليه ولم يستره. فالوصف في عرف القدماء: ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات وقال ابن رشيق "إن الشعر إلا اقله راجع إلى باب الوصف" وجعلوا الأبواب الخمسة للإنسان تصف أخلاقه وطباعه ومزاياه ومحاسنه وخلقته وتكوينه. وخصوا الوصف بالحيوان والنبات والأرض والماء والنار والسماء"[12].

من خلال البحث عن الدلالة المعجمية للفظة "الوصف" في مختلف أمهات المعاجم العربية نجد أن الجميع يتفق أنها جاءت في معنى النعت والتجسيد والإبراز والإظهار.

2.3.اصطلاحا:

تعددت تعاريف الوصف الاصطلاحية، وكل يدلو بدلوه فجاء في معجم النقد الأدبي أن الوصف" مقولة بلاغية وسردية"[13]. وهو "مصطلح أدبي يعني نعت الشيء وذكر محاسنه ومساوئه وقد ذكره الجاحظ (255هـ). وثعلب(291هـ). وابن المعتز(296هـ)، الصولي(336هـ)، والمبرد(385هـ)، وابن طباطبا(322هـ) كغرض من أغراض الشعر المشهورة.أما قدامة(337هـ) فتعريفه للوصف يتكون من شقين، يؤكد أولهما ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات...ويدل الثاني على مدى تعمق قدامة في فهم حقيقة الوصف، فمقياس جودة الوصف عنده مستمد من الشعر نفسه"[14]..

وهو يدل على"الأسلوب العلمي الذي تتبعه المدرسة البنوية منهجا، وهو يعني عندها الموضوعية والذي نعنيه بالوصف في هذه المدرسة بالضبط هو تفكيك البنية اللغوية إلى عناصرها المكونة وتصنيفها دون شرح الأسباب التي جعلتها تكون على هذا الشكل دون الآخر، ثم أن الوصف يجب أن يقف عند حدود الأشكال اللغوية دون الذهاب إلى ابعد من ذلك، والمقصود بالوصف احد وظائف الخطاب الشعري التي تتجلى في السرد والحوار والبرهان وغيرها"[15].

وقد جاء في المعجم المفصل في اللغة والأدب أن" الوصف في الأدب هو نهج يطابق نهجا في الإدراك، ويجسد سياقا في الوعي، مبعثه طبيعة النفس التي تعي ذاتها ومحيطها الطبيعي، وقوامه نقل المشاهد والأحداث والحالات، كما تنعكس في مرآة الذات الإنسانية قولا وكتابة"[16].و يشكل "تمثيل بنيوي للجمل، وللصوتيات المكونة للصرفيات، ولطرق ائتلافها"[17].

وجاء في قاموس السرديات أن الوصف" تقديم(تمثيل) الأشياء والكائنات والمواقف أو الأحداث في وجودها المكاني عوضا عن وجودها الزمني، وفي أدائها لوظيفتها الطبولوجية عوضا عن وظيفتها الكرونولوجية، وفي تزامنها وليس في تتابعها الزمني، الأمر الذي يميزه عادة عن السرد"narration" والتعليق "commetary""[18]. وهذا يعني انه" عبارة عما دل على الذات باعتبار معنى هو المقصود من جوهر حروفه أي يدل على الذات بصفة"كأحمر" فانه بجوهر يدل على معنى مقصود وهو الحمرة"[19].

وهو" شكل من أشكال القول ينبئ عن كيف يبدو شيء ما، وكيف يكون مذاقه ورائحته وصوته ومسلكه وشعوره. ويشمل استعمال الكلمة الأشياء والناس والحيوانات والأماكن والمناظر والأمزجة النفسية والانطباعات"[20].

ورد في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب "الوصف إنشاء يراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أوإحساسأو زمان للقارئ أو المستمع. وفي العمل الأدبي يخلق الوصف البيئة التي تجري فيها أحداث القصص"[21].وهو" يطلق على تركيب أو خطاب يميز طبقة موضوعات، دون أن تقف عند الخطوط الدقيقة والمختلفة، سواء كانت بنية وصفية أم لا"[22].

وبتعريف أدقفإن "الوصف أحد أغراض الشعر ..وهو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء لما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم وصفا من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها"[23]. وكما هو معلوم ان الوصف هو" أحد أغراض الشعر، والشعر-إلا اقله- راجع إليه ...والناس يتفاوتون في الوصف، فمنهم من يجيد وصف شيء ولا يجيد وصف شيء آخر ومنهم من يجيد الأوصاف كلها وان غلبت إجادته في بعضها"[24].

من خلال التعريفات الاصطلاحية السابقة يتبين لنا أن الوصف فن ينتمي إلى عالم الجمال، ويعبر عن غرض من أغراض الشعر التي تجسد الملموسات وتتعداها إلى المحسوسات.

3.3.خصائص الوصف:

إن القول بقدم الوصف لا يعني أنه كان منذ ظهوره غرضا بارزا، تخصص له قصائد مستقلة، او يشغل حيزا كبيرا من القصائد المطولة، وإنما كان يخالط الموضوعات الاخرى ويتسرب بين تضاعيفها. ومما يقوي هذا الزعم امور منها قول ابن رشيق "الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل الى حصره واستقصائه"[25]، وقد عدد النقاد مجموعة من الخصائص التي كانت تميز هذا الغرض منذ القديم وكان من بينها:

- أن الوصف لم يكن غرضا متفردا فأنت لا تجد فيه قصيدة، وقفها شاعر على وصف روضة، وأخرى قصرت على صفة ثور. وانما تجد الوصف ركنا من أركان القصيدة كالحجر في البناء، أو حلية تجمل الفكرة كالسوار في المعصم.
- غلبة الطابع الحسي على الصور، وقرب المشبه من المشبه به. فالناقة تشبه بالثور او بالسفينة، وقرن الثور الذي اخترق صدر الكلب ونفذ من ظهره مثل السفود الذي يحتمل الشواء ويديره فوق النار. وقد أعجب النقاد القدامى بقرب المشبه من المشبه به إعجابا شديدا. قال قدامة : أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات اكثر من انفرادهما.
- تجسد المعنى او تجسيمه، أي التعبير عن الفكرة المجردة بمخلوق حي، له جرم مرئي، يملأ السمع والبصر.
- القص والمحاورة، وتشيع هذه الظاهرة في قصائد الطّرد كما في لامية زهير، إذ قص عليك خبر خروجه مع صحبه وغلمانه ونقل اليك كيف اكمن غلامه في مرصد، وانتظره حتى عاد اليه، وحاوره فيما رأى. وهذه الخاصة تحي المشاهد، وتبث فيها الحركة.[26]
- الاستطراد ونعني به انتقال الشاعر من موصوف الى موصوف، وعودته الى الاول، كما انتقل لبيد من وصف الناقد الى وصف الحمار الوحشي بعشرة ابيات، ثم التفت كرة اخرى الى الناقة، ثم قارن الناقة ببقرة وحشية، ذعرها الصيادون فوصفها بخمسة عشر بيتا ليعود بعد ذلك الى ناقته.
- الواقعية التي ترتدي أكثر من لبوس، وأبرز مظاهرها النقل الامين من البيئة، فإن كان الشاعر اعرابيا موغلا في البداوة جاء بصور جافية، فلم يتحجر من تشبيه وجوه اصحابه بوجوه الذئاب.....ومن مظاهر الواقعية الدقة في الرسم وتلوين المرسوم، ورصد حركاته، ويتجلى ذلك كله في وصف الطبيعة.
- البراعة في استعمال اللغة. ولا نقصد بتلك الخاصية الدقة في اختيار الالفاظ، وتعبير الكلمة عن الدلالة المقصودة. ..وإنما نعني بها أن الشاعر كان يختار الحوشي الغريب لموضوعات البداوة كوصف الناقة والفرس والثور.
- الايقاع، ونعني به تقطيع الكلام على نحو يناسب حركات الفكر، وهو يصنع المعنى، ويناسب حركات الموصوف، وهو يترجم هذا المعنى[27].

وبذلك يمكن ان نخلص الى القول بان هناك مجموعة من الخصائص التي تميز بها الوصف عامة والوصف في العصر الاندلسي بصفة خاصة.

4.3.الوصف في العصر الاندلسي:

لقد حبا الله الاندلس بطبيعة لا تضاهى، وبثروات لا تبارى، وتميز أهلها بالذكاء، والنظافة والظرف والاقبال على الحياة[28]. وقد تنوعت طبيعتها بين خمائل جميلة، وجبال وسهول ووديان، وزهر والوان، ومروج وبحور وخلجان، اثمرت شعرا نديا وغناء ثريا ورجلا فصيحا وعاميا.فها هي البرك والنواعير والحدائق، والانهار والاشجار والنمارق، خيال رائق، وشعور فائق، وموسيقى وفنون، ومال وشرب ومجون، أثمر لهوا وفسادا، جاء على الاخضر واليابس، وكانوا كأمس الذاهب وتنوعت سبل الطرب بين غزل ووصف، وأدب وفن وأنساب وأمثال، وأشعار، وبين هذا وذلك نما شعراء فحول كابن هانئ أميرها، وابن زيدون اديبها، بنثر موشى وشعر جميل وجد وهزل ونصح عليل[29].

وقد عرف الأندلسيون برقة الوصف ودقة التصوير، وشهر عنهم التبريز في ذلك والافتتان به. فكان شعرهم في الوصف طرفة فنية ممتعة. جميلة الشكل نادرة المثال حسنة المنظر، وكان شعراؤهم يحسنون شعر الوصف، ويحبونه ويجيدون نظمه ويكثرون منه، على حين هو أصعب أنواع الشعر منالا واعزها مطلبا . اذ لا يحسن حتى يدق التشبيه ويسبح الخيال ويندر المجاز وتغرب الاستعارة، ويكون ذلك وحيا من الخاطر وإلهاما من العقل، وليس هذا بالمستطاع لكثير من الشعراء ولا لكثير من المقدمين منه[30] . فاذا شئت ان تلمس ابداعهم وبراعة وصفهم، ودقة تصويرهم ورقة احساسهم، وشدة افتتانهم وحلاوة معانيهم فاسمعهم في ذكر بلادهم الجميلة ووصف مفاتنها[31].

والوصف باب من الشعر قلما تجد شاعرا لا يحسن منه شيئا أو أشياء[32]، وهو ذلك النوع الدقيق الرقيق، الذي يعم دبه المترسل إلى تحديد الغرض وتبيين الحقيقة، والإفصاح عن الخبيء الكامن والمستتر الخفي، وهي أحوج ما تكون إلى ثروة عظيمة من الألفاظ و التشابيه. وقدم راسخة في ساحة الأدب وميدان البلاغة، وليس بعجيب أن تعد نوعا مستقلا. وقسما ليس تابعا لغيره، لأن الأندلسيين برعوا في تلك الناحية وبلغوا فيها شأوا لم تتهيأ أسبابه لكثير غيرهم[33].

ولما كان الوصف عند العرب اشبه بالحقيقة العلمية، كان الشاعر منهم لا يتعاطى الى ما يُحسن من ذلك ضرورة، وقد يشارك في اوصاف كثيرة ولكنه ينفرد بالشهرة في بعضها، من جهة العلم لا من جهة الصناعة، فكلما كان اعلم بأجزاء الموصوف وحالاته، واقدر على استقصاء هذا العلم في شعره، كان أبلغ في الوصف واولى بالتقديم فيه، وان احسن ما يكون الوصف الصادق اذا خرج عن علم، وصرفته روعة العجب، فإن العلم يعطي مادة الحقيقة، والعجب يكسبها صورة المبالغة الشعرية، وكل وصف لا يكون عن هذين او احدهما فهو تزيد من الكذب، وتكثر بالباطل، لان سبيله سبيل المصنوع المتكلف، ولا يسلم متعاطيه من الخطأ، كما ترى شعراء المولدين يصنعون في صفة الابل ونحوه من خصائص الشعر[34].

و الذي يقرأ الشعر الاندلسي يجده أخا للشعر في بغداد، بل وفي بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة، والموضوعات التي كانت عند القدماء. على أن شعر الاندلس يمتاز في جملته عن الشعر العربي بما فيه من المعاني

المبتكرة الجميلة، التي كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع، والكلام الرشيق، والذوق، والافتتان في أساليب الخيال، ولأنه يدل على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربي: فبينما ترى الشاعر يصبو إلى ذكر بلاده الاولى من حياته البدوية، تجده يذكر الرياض والبساتين والازهار والانهار، والمياه الجارية وظلال الاشجار والنسيم العليل والآراء العامة والخاصة واحوال الاجتماع والعادات[35].

وبذلك فالشعر العربي الاندلسي–كغيره من الانواع الاخرى لهذا الادب–كيان فني مزال تراثا حيا خالدا بقيمه وما خلفه في ذاكرتنا، ولكنه تراث مندثر مات بعد ان اكمل دورة مولده ونموه وسائر أطوار حياته[36].

ومن هذا القبيل يمتاز شعر فحول الاندلس بتجسيم الخيال النحيف واحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحي بها الحضارة، والتصرف في ارق فنون القول واختيار الالفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة وابداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي،بل هي تحمل بما فيها من الرقة والرنين، ولا يشاركهم في ذلك الا من ينزع هذا المنزع ويتكلف ذلك الاسلوب، لان جزالة اللفظ عندهم انما هي روعة موقعه وحلاوة ارتباطه بسائر اجزاء الجملة وتلك فلسفة الجزالة [37].

وهو جزء طبيعي من منطق الانسان، لأن النفس محتاجة من اصل الفطرة الى ما يكشف لها من الموجودات وما يكشف للموجودات منها، ولا يكون ذلك الا بتمثيل الحقيقة وتأديتها الى التصور في طريق من طرق السمع والبصر والفؤاد، أي الحس المعنوي فالأمم الطبيعية هي أصدق الامم في الوصف طبيعة، لأنه سبيل الحقيقة في ألسنتها[38].

وخلاصة يمكن القول ان الوصف عند الأندلسيين قد شمل كل شيء وطرق كل ما وقع تحت السمع والبصر لاتساع مجال الخيال لديهم، ووفرة مادة المشاهدات في بيئتهم، لذلك لم يدع شعراؤهم جليلا ولا حقيرا ولا مبتذلا ولا عظيما، ولا مظهرا من مظاهر الطبيعة ومناظر الكون إلا وصفوه بعذب شعرهم ورسموه رسما واضحا جليا يجعل السامع كأنه ينظر بعيني رأسه ما يسمع بكلتا أذنيه[39].وقد كان مرآة ناصعة ارتسمت عليها بلاغتهم وصورة حية وضحت فيها تلك العبقرية الفذة وذلك النبوغ النادر[40]، وذلك لأن الشاعر انسان منفرد في الناس، وهو في نفسه عالم مجتمع من حيث تشتبك في نفسه علائق الموجودات وترتبط اسباب الحوادث وتتألف من ذلك كله صور مرتبة تلقيها اليه حقائق هذا العالم التي يستمد منها الشعر[41].

5.3.الوصف عند ابن خفاجة الاندلسي:

يعتبر ابن خفاجةالأندلسي[42]منأحد كبار شعراء الاندلس المعدودين المجددين، طرق أكثر الاغراض الشعرية وصور كثيرا من اللوحات الطبيعية بريشة الرسام الملهم المتمكن وغرض وصف الطبيعة ابرز تلك الاغراض، فهو بحق شاعر الطبيعة الاندلسية ومصورها البارع[43]. وهو من الشعراء الذين ربتهم الطبيعة بجمالها، وهذب إدراكه جمال الوجود، فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية الى معالجة التعبير عن هذا الجمال، وانغمس انغماسا في ذلك، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ولا يفهم غير المعاني الجميلة، فقد كان يخرج الى البراري ليسمع خرير المياه،

ويتمتع بهذه الاصوات والمشاهدات. وكان له ولع بهذا، وبكل ما يقال فيه، حتى لقد كان يجاري الشعراء ويعارضهم في مثل هذه المعاني التي شغلت عقول كثير من الأدباء والشعراء، وكان الكلام في مناظر الطبيعة اذ ذلك من بدع البلاغة والادب[44].

وقد انطلق ابن خفاجة من القاعدة نفسها، قاعدة الحب العميق والارتباط الوثيق بطبيعة بلدته شقر ووطنه الاندلس، فعبر عن مشاعره واحاسيسه بشعر مفعم بالعواطف، زاخر بمشاهد الطبيعة في تجلياتها المختلفة، مما يدل على احساسه العميق بها، وتجاوبه الحي مع عناصرها وظواهر ومعطياتها، وهو شعور افصح عنه هو نفسه بقوله: اكثار ها الرجل-يعني نفسه- في شعره من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماء، ورنة طائر، ما هو الا لأنه كان جانحا الى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها، واما لان الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك في ماء سائح، وطير صادر، وارض اريضة،...وفعلا فإن المتصفح لديوانه يلحظ كثرة الموصوفات، وازدحام الصور الطبيعية المبثوثة في شعره كله بأغراضه المختلفة. مدحا ورثاء، ووصفا وفخرا، وغزلا وحنينا، فقد وجد الشاعر في عناصر الطبيعة المتنوعة، من روضيات وشجريات، ونوريات ومائيات، وظواهر الكون المختلفة، متحركة وجامدة، حية وصامتة، زادا ضخما لتشبيهاته واستعاراته، ومجالا خصبا لبث عواطفه وافكاره وتصوراته[45].

فالشاعر-فما يبدو لنا-ينظم الشعر هواية ولا يبغي من ورائه تكسبا، بعد ان حباه الله من اليسر ما اغناه عن التزلف. ولذلك لم يعرف شعره بالغزارة، انه ينتشي بجمال الطبيعة فيصفها، ويطيب له العيش فينعته، ثم يحفزه على القول حادث فيشيد به[46]، وقد تنبه القدماء والمحدثون ممن تعرضوا لحياة الشاعر وأدبه بالدراسة والتحليل للمكانة التي احتلتها الطبيعة في شعره ونثره، فأبدى كل منهم انطباعه واعطى رأيه في هذه الظاهرة، وهي آراء وانطباعات تنم في مجملها عن تقدير للشاعر، واكبار لجهده ومساهمته في هذا المجال. فقد ذكره معاصروه ومن تلاهم من القدماء، وشهدوا له بالبراعة والسبق في وصف الرياض والمياه، ومل يتعلق بهما من مظاهر الطبيعة المختلفة، وفخر القندي في رسالته بموهبة الشاعر في هذا الفن على اهل الحدوة، ووصفه ابن سعيد في الرايات بانه شاعر الاندلس في وصف الازهار والانهار. واما المقري فقد لقب الشاعر بلقب شاعر الشام في وصف الطبيعة ابي بكر محمد بن احمد الصنوبري، فدعاه بصنبري الاندلس لاشتراكها في هذا الفن. ثم نوه بشهرته وذكر أن اهل الاندلس كانوا يسمونه الجنان لولعه بوصف الانهار والازهار...ويذهب بعضهم الى ابعد من ذلك فيرون أن الشاعر لقب بشاعر الطبيعة في ادبنا العربي القديم. وينوه آخرون بأثر بيئته في تكوين شاعريته[47].

وكما ذكرنا آنفا فإن ابن خفاجة تناول أكثر الأغراض الشعرية فجود وجدد بكل ما تناوله متمثلا بالمعنى الرقيق والاداء الرشيق، هذا وباب الوصف حافل بالمرقص المطرب. والسائغ السهل، ولن تفيه النماذج حقه، مهما طال إيرادها وكثر تعدادها[48]. إذ كان ابن خفاجة كثير النظر والتأمل في المشاهدات، ولاسيما المناظر الطبيعية، متأثرا بالمنظورات، يحرك عقله نظره. للألوان وتناسق سلطان عظيم عليه، وكل معلوماته جاءته عن طريق النظر الى الاشياء، فكان يرى ويلاحظ ويعرف كيف يرى وكيف يلاحظ ولم يكن له إلا أن يلبس هذه المنظورات عبارات والفاظ بليغة فصيحة. واذ كان بطبيعته فنيا كان اختياره للألفاظ والجمل حسنا جيدا، كما يختار المصور الماهر

الالوان الجميلة اللازمة له. لذلك كان أسلوبه جميلا وعباراته سهلة وكلامه سائغا للنفس بعيدا عن كل تعقيد أو تركيب ركيك، أو غموض في اللفظ او المعنى. ويكاد يكون ديوان شعره من أوله إلى اخره على نسق واحد في المتانة وحسن العبارة، وكله من نوع واحد من حيث الصور العامة. ولكن تكرار المعاني لا يكاد يجد له القارئ اثرا لبراعة الشاعر واختياره المعاني التي كلما مرت بالنفس او بالسمع تجدد اثرها بتجديد الفاظها، وتتغير آثارها بتغير تراكيبها[49].

وقد احتل وصف الطبيعة مكانة بارزة في الشعر الاندلسي بصفة عامة وفي شعر ابن خفاجة بصفة خاصة،وذلك لأن في الطبيعة تنتظم جميع الاشياء التي يجري فيها ماء الحياة في السماء والارض، فتشمل اجرام السماء وأفلاكها، ونجومها وكواكبها، وسحبها وغيوثها، ورعودها وبروقها، كما تشمل صحاري الارض ورياضها، ووهادها ونجادها، وجدبها وخصبها، وبحارها وانهارها، وكل ما تبتكره عقول العلماء، وتصنعه يد الانسان. وإذن فإنها تنقسم الى قسمين: الظواهر الطبيعية و الاثار الانسانية[50].

ولما وصف ابن خفاجة الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها، فقد وصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسمائها ونجومها... ووصف الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور. وذلك لان الشاعر العربي عني بوصف الطبيعة المتحركة العناية كلها، ولا سيما الناقة والفرس، وله ما يبرر هذه العناية بهذين الحيوانين اكثر من عنايته بسواهما، فان الناقة اعظم خلق ارضي في نظره لما يفيده منها ولما تسديه اليه من صنائعها...وان الفرس لأجمل ما خلق الله في نظره، وهو الى هذا الجمال الفتان صديق حربه، وسلمه ولهوه وجده، وطرده وصده[51]...وبذلك كانت الطبيعة مستولية على حواسه ولم يستطع أن ينساها حتى في أغراضه الأخرى. وقد نعته المقري في نفح الطيب بصنوبري الأندلس وعده أوصف الناس للأنهار والأزهار، والرياض والحياض، والرياحين والبساتين ويبقى ابن خفاجة واحدا من أبرز الشعراء الأندلس، وعلما من أعلام الوصف في الشعر العربي[52].

ودونك في ذلك فاقرأ له العذب الأخاذ والرقيق الخلاب من ذلك الشعر، في وصف الأنهار والبحار، والتماثيل والقصور، فهذا يصف نهرا فيقول:

لله نهر سال في بطحاءِ ***أشهى وُرودا من لَمَى الحَسناء

مُتعطفٌ مثلَ السوارِ كأنهُ* والزهرُ يَكنُفُه مَجَرُّ سَماءِ**

قدرقّ حتى ظُن قُرصا مُفرّغا* من فضّة في بُردة خَضراء**

وغَدَت تَحُف به الغُصونُ كأنها*هُدبٌ يَحُفّ بمنقُلة زَرقاءِ**

ولَطالما عاطيتُ فيه مُدامَةً * صَفراء تَخضب أيدي النّدَماءِ**

والرّيح تعبثُ بالغصون وقد جرى*ذَهب الاصيل على لجين الماء"[53]**

ولأن الشعر الاندلسي الوصفي قد تميز بظاهرة المزج بين الوصف الوجداني والمادي فإن الطبيعة الاندلسية الجميلة، تبدو مشمسة وارفة الظلال حتى في اغراض لا تمت الى الطبيعة بسبب، كغرض المدح[54]، من ذلك مثلا قول ابن خفاجة مخاطبا أبا بكر بن الحاج في مجموعة أبيات غرضها المدح:

لذكرك ماعَبّ الخليجُ يُصَفّقُ* وباسمك ما غنى الحمام المُطوق.**

ومن أجلك اهتز القضيبُ على النّقا* وأشرَق نوار الربى يتفتق.**

وما ذاك إلا خُلقَك رائق*يُهز كما هز الرحيق المُعتّق[55]**

ومن شعره قصيدة نظمها يمدح الأمير أبي يحي بن ابراهيم ويذكر فيها خروجه للصيد ويتعرض وصف الكثير من الطير والوحش وهذه من المعاني التي جدد بها الشعراء الاندلسيون، أن القصيدة طويلة لا مجا لإثباتها كلها مادام الغرض هو التعرف على أغراض الشاعر واسلوبه[56]، وهذا قسم من القصيدة يقول:

سمح الخيال على النوى بمزار*والصبح يمسح على جبين نهار**

فرفعت من ناري لضيف طارق*يعشو اليها من خيال طاري**

ركب الدجى أحسن بها من مركب* وطوى السرى احبب به من ساري.[57]**

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فحتى في غرض الرثاء البعيد كل البعد عن وصف الطبيعة وموحياتهاهو ابن خفاجة يسترسل في الوصفحين قال يرثي أبا محمد عبد الله بن ربيعة:

في كل ناد منك روضُ ثناءٍ*وبكل خَدّ فيك جدول ماء**

ولكل شخص هِزة الغُصن الندى*غِبَّ البُكاء ورِنة المُكاء**

يا مطلع الانوار إنّ بمُقلتي* آسفا عليك كمنشإ الانواء[58]**

يظهر من عبارات ابن خفاجة انه كان متمكنا من صناعته، عارفا بها، سائرا على منوال واحد فيها، في نظمه ونثره، "وليس نثره غير شعر منثور، ولا شعره غير نثر منظوم "[59].مما يدل دلالة واضحة على أن جمال الطبيعة الاندلسية كان يسيطر على أخيلة الشاعر ويأخذ باله فلا يستطيع التخلص من أسره المحبب، "على أن الغرض البارز الذي كان له حيز واضح في شعر ابن خفاجة إنما هو الوصف ووصف الطبيعة بوجه خاص، فقد عرف كثير من الشعراء، حتى لقد اشتهر في الأدب العربي بأنه جنان الأندلس. يقول ابن خفاجة في وصف شجرة منورة:

يا رب مائسة المعاطف تزدهي* من كل غصن خافق بوشاح**

مهتزة، يرتجُّ من أعطافها* ما شئت من كفل يموج رداح**

نفضت ذوائبها الرياحُ عشية* فتملكتها هِزةُ المرتاح**

حط الربيع قناعها عن مفرق* شَمط كما ترتد كاسُ الرّاح**

لفّاء حاك لها الغمامُ مُلاءة* لبست بها حسنا قميص صباح**

نضح الندى نُوارها فكأنما*مَسحتَ معاطفها يمينُ سَماح**

ولوى الخليج هناك صفحة مُعرض * لثمت سوالفها ثغور أقاح**[60]

موضوع هذه الابيات ان ابن خفاجة يعالج الوصف، ووصف الطبيعة بوجه خاص باعتباره موضوعا رئيسيا له شأن في نفس الإنسان ومشاعره. ومع أن موضوع القصيدة وصف شجرة فإن الشاعر لم يذكر لفظ الشجرة أو الدوحة خلال أبياته، لأنه آثر أن يصفها وصفا غير مباشر. أنه يتحدث عنها كمن يتحدث عن امرأة تتسم بكثير من سمات الأنوثة، فهي مزدهية بحسنها وتتمايل على جانبيها تيها بجمالها وقد ازدانت بأنضر الأزهار. وعندما تهب عليها الريح وتهز أعطافها تبدو أيضا كامرأة ممتلئة البدن مكتنزة الارداف، وهذه أوصفة في جسد الانثى كانت مستحبة عند العرب منذ الجاهلية وحافظ عليها الذوق الأندلسي. كذلك تتبدى لابن خفاجة رؤوس الأغصان كخصلات الشعر التي تتطاير مع هبوب الهواء وتنم عن البهجة والسرور. لقد غلب على هذه الشجرة بياض الأزاهير فبدت أشبه برأس جلله المشيب، أو مثل كأس الزاج علاه الزبد. إنها أيضا أشبه بفتاة ممتلئة الجسم مكتنزة الفخذين اتشحت بغلالة رقيقة من نسج السحاب، وأخذت تميس بقميصها صباحا بعد أن أفاقت من نوم هنئ. ها قد توضعت قطرات الندى على تلك الأزاهير غزيرة كأنما نثرتها يد سخية معطاء تغدق العطايا والهبات، كما كان على مقربة من هذه الشجرة نهر دافق يبتعد عنها بمجراه، وكأنه يصد عن الحبيب، على حين تناثرت على جانبيه الأزاهير وهي تميل نحو صفصافه لثما وتقبيلا.[61]

ولعل أبرز ما يلفت الانتباه في هذه الأبيات هو هذا المزج بين الشجرة والمرأة بحيث تتحدان معا فلا تتميز الواحدة من الأخرى، حتى لتغدوان عنصرا واحدا. وقد جنح الشاعر في سبيل بلوغ هذا الإيهام الجميل، إلى إكساب الشجرة العديد من صفات المرأة خالعا عليها أبرز الملامح الإنسانية، فهي مائسة متمايلة، وهي ترتدي الوشاح مزهوة بحسنها وهي مفعمة بالعافية ثقيلة الأرداف، كما أنها ذات شعر مسترسل طويل الغدائر، تتلفع بعباءة وتلتف بقميص...الخ. وقد وقف الشاعر في هذا التشخيص الذي ينطوي على إيجاد الصفات المشتركة بين الشجرة والمرأة حين قرن في وصفه بين موضوعين متناسبين في هذه الطبيعة من حيث تشابههما وتوافر عناصر الجمال فيهما.

وهكذا طغى الخيال على هذا النص منذ بدايته، حين آثر ابن خفاجة معالجة وصف الشجرة بطرق غير مباشر، مستعينا على ذلك بالصور الكثيرة التي تزحم بها هذه الأبيات القليلة...وقد يكون من ابرز خصائص النص أيضا غناه بعنصر الحركة، إذ أن هذا التشخيص أضفى على النص سمات الحياة التي سرت إلى عناصر الطبيعة من المرأة حين راح الشاعر ينظر إلى الشجرة والأزاهير من خلال أنوثتها، فإذا هي تميس و تهتز وتزدهي وترتدي وتنضح وتمسح وتعرض وتلثم...وعلى الرغم من وحدة الموضوع وكون النص أشبه بمشهد معجب او لوحة مصورة لمنظر من الطبيعة البهيجة فان ثمة تنافرا بين جزيئات وصفه، من مثل نعت رأس الشجرة بالشمط، فهذه صورة مغايرة لسائر صور الأبيات لأنها تعبر عن المشيب. وربما اضطر الشاعر إليها في وصفه لبياض الزهر، وبذلك أساء إلى ملامح الفتاة الجميلة التي حرص على وصف محاسنها وتصوير مفاتنها[62].

وهذا يدل على أن ابن خفاجة يعني بالوصف الجزئي وبالصورة المستقلة في البيت دون أن يحفل بمراعاة الانسجام بين أجزاء موضوعه الوصفي أو يحرص على التوافق بين تفصيلاته من خلال نظرة كلية أو رؤية شاملة . وهذه الظاهرة تبدو على نحو ابرز من مقطعات أخرى من وصف ابن خفاجة، ولم ينج منها بعض الشعراء الوصافين في الأدب العربي كابن المعتز ممن كان دأبهم السعي إلى اقتناص الصور وترصيع أبياتهم بها كما لو أنها نمط من الفسيفساء.ولعل من ابرز السمات المميزة لابن خفاجة في ادائه الفني انه يعدل في شعره عن التعبير المباشر ويؤثر طريقة التصوير، والتصوير نمط رفيع من أنماط التعبير في مجال الوصف، حتى ان ابن خفاجة يمضي في اصطناع الصور داخل أبياته إلى حد الاكتظاظ معتمدا في ذلك على ألوان التشبيهات والاستعارات. غير ان الصور قلما اتسمت لديه بالطرافة والإبداع فالأقاحي لديه كالثغور، والنار كالنجوم، والندى كاللؤلؤ والشمس كالذهب، والماء كالفضة، والنهر كالسوار، والهلال كالعذار ..فابن خفاجة لا يبتعد في ذلك عن مألوف الشعر الأندلسي[63]

ومن ناحية أخرى كان يغلب على وصف ابن خفاجة التلوين الحسي دون أن يتعداه إلى التوغل في حنايا النفس والشعور. وإذا ما استثنينا قصيدته الفريدة في وصف الجبل فان سائر أشعاره لا تكاد تتجاوز ما تراه العين تلمسه اليد وتسمعه الأذن، فعل العدسة الفوتوغرافية المصورة أو آلة التسجيل.ولعل البهجة والمرح اخيرا من ابرز ملامح الوصف المميزة في شعر ابن خفاجة، اذ قلما كانت الطبيعة لديه قاتمة عابسة. وقد يعزي ذلك الى استواء حياة هذا الشاعر الذي عاش خلال عمر مديد في منأى عن الأزمات الاجتماعية وفي منجى عن الاكتواء بالهزات السياسية"[64]

هذا ولم يدع ابن خفاجة بابا في الوصف إلا وطرقه، فوصف المعارك الحربية، كما وصف القلاع والحصون،والأساطيل والسيوف. وها هو يصف قوسا فيقول:

عوجاءُ تُعطفُ ثم تُرسل تارَة*فكأنما هي حية تنساب**

وإذا انحنت والسهم منها خارج* فهي الهِلال انقض منهُ شِهابُ[65].**

هذا وقد زاوج ابن خفاجة بين العديد من الموضوعات فأدرج المرأة بين ثنايا الطبيعة وهذا منهج اعتاد الشعراء، عربا وأعاجم تشبيه محاسن المرأة بمفاتن الطبيعة، كان يجعلوا قدها كالغصن وشعرها كالليل. وكان من المنطقي تبعا لذلك أن تشيع معاني الطبيعة في موضوعات الغزل ويسري نسغها في عناصر وصف جمال المرأة، ويبلغ هذا المنحى ذروته عند ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأكبر في الأندلس حين يزاوج بين الطبيعة والمرأة في أكثر شعره. وكم تألقت ربوع الأندلس الجميلة لديه فتاة حسناء تأخذ بمجامع القلب، فابن خفاجة يجنح في أكثر شعره الوصفي إلى تصوير الطبيعة امرأة فاتنة ، في دلك يقول:

يا رُب ليل بِتّهُ* وكأنه من وحفِ شَعرك**

تنهل مزْنة دمعتي* فيه ويندى نور ذكرك**

أتبعتُ فيه وقد بكيـ*ـتُ عقيق خدك دُرّ ثغرك**

فكأنما ينفضّ عن* حببٍ لها رمان صدرك**

فكأنها وكأن جدول مائها * حسناء شد بحسنها زنار**[66]

وككل الشعراء العرب الذين لم يتورعوا عن وصف الخمر وآنيتها، ولعبها بالعقول وامتلاكها الألباب ووصف مجالس الطرب وأوقات الأنس والسمر"[67]. فهذا ابن خفاجة وكعهدنا به وصافا بارعا، نراه كعادته يكثر من تصوير الجانب الضاحك من الحياة حيث للخمرة القدح المعلى وفي ذلك يقول:

ومجرّ ذيل غمامة قد نمقت* وشي الربيع به، يد الأنواء**

ألقيت أرحُلنا هناك بقُبة* مضرُوبة من سرحة غناء**

وشربتها عذراء تحسبُأنها* معصورة من وجنتي عذراء**

حمراء صافية تطيب بنفسها* وغنائها وخلائق الندماء**

خذها كما طلعت عليك عرارة* مفترة عن لؤلؤ الأنداء**[68]

فقد مزج ابن خفاجة بين الخمرة والطبيعة ، فجعل من الطبيعة طروبا تبعث في النفس معاني المرح والبهجة،بينما يشرب مجاراة لها في طربها ونشوتها ورقصها.

6.3.جماليات الوصف عند ابن خفاجة الاندلسي

اولا: الصور البيانية

تعددت مواطن الصور البيانية وما أكثر ورودها في شعر ابن خفاجة، وقد تنوعت بين تشبيه واستعارة، وفيما يلي سنورد بعض الامثلة منها:

أ- التشبيه:

يعتبر التشبيه أكثر الأساليب البلاغية تداولا بين الشعراء، لأنه يؤدي إلى نقل الصور الانفعالية،وإضافة الخيال، والتعابير المجازية، وللتشبيه وقع حسن في نفسية المتلقي لما يجد فيه من متعة ولذة، تنسكب على نفسه وتتركه يجنح إلى عالم الخيال الفسيح، ومنها يكون الشاعر قد ادى رسالته التي تتركز حول إصابة المشاعر والضرب على أوتارها. وفيما نحن نتقصى أهم التشبيهات المتداولة في شعر ابن خفاجة، والمتمثلة في ظواهر الطبيعة الحية والميتة. نجده يمدحالامير أبا اسحاق فيقول:

ألا هل أطل الأمير الأجل*أم الشمس حلت برأس الحمل**

فما شئت من زهرة نضرة*تردى القضيب بها واشتمل**

وهزت معاطفة والتوى*بمسرى النسيم التواء الجِدل**[69]

نجد الشاعر شبه ممدوحه" أبا إسحاق" بالشمس التي هي مصدر الحياة والضياء والحرارة، إذ لا حياة على البسيطة من دونها، فهو يشبهه بالشمس التي تبعث أشعتها على دولته ورعيته.

هذا ويردف قائلا مشبها ممدوحه" قاضي القضاة" بالريحان:

عَبِقَ الثناء ندى الحيا، فكأنه*ريحانة مطلولة الأفياء**

فيؤكد ابن خفاجة في هذا البيت على شدة روائح ممدوحه، فهو يفوح عطرا كما تفوح الريحانة المعلقة فوق الأغصان، ذاكرا أداة التشبيه والمشبه به ووجه الشبه، ليكون التشبيه تشبيها بليغا.

ويسترسل ابن خفاجة في مدح ممدوحه بإدراج العديد من صور التشبيه حتى يصل الى قوله:

وكأنه، وكأن رجع نشيده*فصل الربيع ورنة المُكاء**[70]

يبرز في هذه المقطوعات الشعرية ان ابن خفاجة يصف ممدوحه بمظهر من مظاهر الطبيعة، فالصورة التشبيهية هنا، تتمثل في فصل الربيع الذي هو مصدر الخير والجمال، ذاكرا فيه أداة التشبيه والمشبه والمشبه به، حاذفا وجه الشبه وهذا النوع من التشبيه عند الباغيين يسمى تشبيها مرسلا أو مجملا، وقد استخدم أهم عنصر من عناصر الحياة وهو الماء، في وصف ممدوحه و تشبيهه في سلطته وقوته ورحمته فيقول:

وكأنه، من عزمه في رحمة*متركب من جذوة في ماء** [71]

فقد شبه عزم ممدوحه في القوة والسلطة والبطش بالشعلة النارية، وشبه رحمته ورفاقه على رعيته بالماء الذي هو مصدر الحياة وينبوعها الفياض الذي لا ينقضي ولا يزول.

ومن التشبيه البليغ التي ذكرت فيه كل لوازمه نجسده مجسدا في هذا البيت الجميل:

تخايل، نخوه بهم المذاكي*وتغسيل، هزة، لهم الرماح**

لهم همم، كما شمخت جبال*وأخلاق، كما دمثت بطاح**

فنجده يصف ممدوحه بطول الهمم التي بلغت ذروة الجبال وبدماثة الأخلاق ولطافتها وهذا النوع من التشبيه يزيد في توضيح المعنى وتجلياته، وهذا يدل عن تمكن ابن خفاجة من ناصية اللغة والبلاغة، مما زاد في جمال ورونق شعره.

ب- الاستعارة

تعرف الاستعارة بانها أعمدة الكلام عليها المعول في التوسع والتصرف، وبها يتوصل إلى تزيين لفظي وتحسين النظم والنثر[72]، ومن خلال تصفحنا لديوان ابن خفاجة نلاحظ أنه استخدم الاستعارة في شعره بشكل اكثر من التشبيه، ذلك لأنه أدرك قيمتها، فأخذ يوظفها في شعره حتى صارت كأنها الحياة تونس بها النفوس، وتعلق بها القلوب.

وقد وظف ابن خفاجة جميع الاستعارات المختلفة مستعينا بمظاهر الطبيعة الحية والميتة، وهذا نظرا لتمتعه بحس رقيق وخيال واسع، وإحساس شديد وتركيبته النفسية الرقيقة، صبغتها الطبيعة الأندلسية الجميلة، ومن ذلك قوله:

متقسم الألحاظ بين محاسن*من ردف رابية، وخصر قرار**

وأراكة سجع الهديل بفرعها*والصبح يسفر عن جبين نهار**

هزت له أعطافها، ولربما*خلعت عليه ملاءة الأنوار**[73]

يصف ابن خفاجة في هذه المقطوعة الشعرية شجرة كثيفة الأغصان وقد أخذ الحمام يردد أغانيه وترنيمته الجميلة فوق أغصانها، كما أن هذه الأشجار اشتاقت لرؤية الصباح، فهي تود لقاءه في لهفة واشتياق، لتعبر عن فرحتها

بلقائه، ويرمي ابن خفاجة هنا الى التلميح، باستعارة الشجرة بالمرأة مع حذفالمشبه وذكر لوازمه وهي (هزت له أغصانها)،

ولما كانت الطبيعة ملهمة ابن خفاجة في اشعاره، فقد تلون بها مزودا بمختلف الاستعارات الجميلة، يقول:

وفات الرياح وطال الرماح*فطول عميم وطول عمم**

يمد بغُر الأيادي يدا*تصاحب فيها الأذى والقلم**

فيمحو مداد سواد الرجا*بما فاض من ماء بيض النعم** [74]

فنجد الشاعر يصف ممدوحه ببعض الصفات الحميدة، التي يمتاز بها من غيره كالكرم والسخاء، وقد استعار الشاعر كلمة الندى مع حذف المشبه وتصريح بالمشبه به.

ومن الاستعارات الجميلة التي تزيد في المعنى الذي يقصده الشاعر، ويرمي إليه نجده يقول:

تندى بفيه أقحوانة أجرع*قد غازلتها الشمس غب سماء**[75]

وقد شبه ابن خفاجة الشمس بالمرأة الحسناء، وحذف المشبه به الذي هو المرأة وأشار إليه بأحد لوازمه الذي هو فعل غازلها.

مما سبق يمكننا القول أن أبن خفاجة قد غلبت في اشعاره الصور البيانية و الملاحظة وتصورات الفكر المنتظمة، فجاءت الصور بذلك واضحة جميلة . وقد استخدم الدقة في وصفه لمظاهر الطبيعة، ما أصبغ عليها صفة الأشياء الحية، كما امتاز ببلاغته القوية، ودقة استعاراته ووضعها في موضعها الأصلي وبهذا صار إماما في هذا الشعر.

2- المحسنات البديعية في شعر ابن خفاجة

كما كان شأن الصور البيانية جاءت المحسنات البديعية لتثبت تمكن الشاعر ابن خفاجة الاندلسي وتبرز بلاغته وانتظام اسلوبه وفيما يلي سنورد امثلة لما ورد فيها

اولا- الجناس

يعتبر الجناس شكلا من أشكال الكلام، وأسلوباللتعبير، وقد اهتم به البلاغيون وأكدوا على توظيفه في الشعر العربي، لأنه يزيد في جمالية البيئة التركيبية الشعرية، وكما هو معروف انه اتفاق كلمتين في الهيئة واختلافهما في المعنى، ومن بين استعمالات شاعرنا ابن خفاجة للجناس قوله:

ولقد جلا الحسن له سنة*يلقى بها المعذول معذورا** [76]

يظهر الجناس في هذا البيت في كلمتي (المعزول) و (معذور)، وهما كلمتان اختلفتا في معنى وتطابق في عدد الحروف ونوعها لكنهما مختلفتان من حيث تركيبتهما، فهذا جناس ناقص.

ومن الجناس التام الذي تتفق فيه الحروف مع عددها وشكلها وترتيبها مع اختلافها في المعنى قوله:

لا اجتلي ملحة، حتى أعي مُلحا* عدلا من الحكم بين السمع، والبصر**[77]

وخلاصة القول أن ابن خفاجة كان يستعمل الجناس لتزيين شعره وتجميله، وظهوره بهذه الروعة الفنية الأخاذة، والجمال الشعري يتوقف على حسن التنسيق ودقة التوظيف، وقوة التأثير ومطابقة الحال.

ت- الطباق

يعرف بأنه الجمع بين الضدين أو شيء وضده في كلام أو بيت شعر[78]،"وحقيقة الطباق إنما مقابلة الشيء بمثل الذي هو قدره، فسموا المتضادين إذا تقابلا – متطابقين"[79]، وقد استعمل ابن خفاجة الطباق في العديد من المواضع منها:

آد بقلبي وهو في طيه*فصار محمولا به حاملا**

ودون ماء الحسن من وقده* ما يصدر الطرف به ناهلا**

وكان قلبي دونه واقدا* وماء جفني فوقه جائلا**

أخوض في الحب به لجة* لم ترم بي من سلوة ساحلا**

أما ترى أعجوبة أن ترى*في الحب، مقتولا فدى قاتلا**

معتدلا، معتديا في الهوى*احبب به معتدلا، مائلا[80]**

عند تعمقنا في هذه المقطوعة الشعرية، يبرز أن ابن خفاجةينفس عن همومه وهواجسه، ويريد إظهار حبه المكتوم، وإحساساته الباطنية وهواجسه الدفينة، فيفرغ بهذا شحنته الانفعالية، و تظهر في هذه الأبيات أنواع الطباق المختلفة التي تزين وتزخرف شكل قصيدته فنجدها متنوعة ومتعددة في: (محمولا)، (حاملا)، (مقتولا)، (قائلا)، معتدلا)، (مائلا)، وقد ورد الطباق أيضا في قوله:

تحمل ما شاء من رقة* فحيا عن المشرق المغربا[81]**

في هذا البيت يمكننا ملاحظة الطباق الذي يتجلى في (المشرق)، (المغرب)

وخلاصة القول أن ابن خفاجة اهتم بالطباق كثيرا، لأنه وجد فيه ما يدعم شعره، الذي يتكامل فيه المضمون مع الشكل واتخذه صفة كما كان يفعل الشعراء القدماء.

4.خاتمة:

لقد اثبت ابن خفاجة الأندلسي براعة لا مثيل لها في وصف الطبيعة، بكل دقائقها، وبمختلف مظاهرها، ولم يكن بدعا من غيره ممن أثروا الشعر العربي بوصف الطبيعة بداية من الشعر الجاهلي وحتى يومنا هذا، وما يدهشنا في وصف ابن خفاجة أنه كان لا يعييه نعت، ولا يثنيه استعمال للفظ، لذلك عد من الوصافين البارعين في هذا الميدان، بما يمكن القول معه انه استطاع ان يسجل اسمه في خانة كبار الشعراء في الاندلس.

كما يمكننا القول أن ابن خفاجة كان في وصفه يمزج روعة ما يشاهده من جمال الطبيعة، وما تستوقفه من مناظر، مع ما يحمله من هموم وأحزان لم تكن لتفارقه حتى في ساعات الفرح والانشراح. مستلهما من الصور البيانية والمحسنات البديعية ما يغنيه عن التكلف والغموض.

5.الهوامش

[1] أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979م، ص ص 192، 193

[2] ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مج4، دار صادر، بيروت، ص 409 مادة(شعر)

[3] يوسف وغليسي: الشعريات والسرديات(قراءة اصطلاحية في الحدود والمفاهيم)، منشورات مخبر السرد العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2007م، ص09

[4] تزيفتان تودوروف: الشعرية، تر: شكري المبخوت، رجاء سلامة، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1987م، ص12

[5] عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، ص 52، 53

[6] أبو نصر الفارابي: الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرق، ط2، بيروت، 1990م، ص141

[7] ابن منظور: لسان العرب، مج 9، دار صادر، بيروت، لبنان، ص356

[8] الخليل بن احمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003م، ص376

[9] الفيروزآباي: القاموس المحيط، تح: انس محمد الشامي، زكريا جابر احمد، دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص1759

[10] مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، الجمهورية العربية المصرية، 2004م، ص1036

[11] جيرالد برنس: المصطلح السردي(معجم مصطلحات)، تر: عابد خزندار، مر تق: محمد بريرى، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2003م، ص58

[12] محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1999م، ص883

[13] كامل عويد العامري: معجم النقد الأدبي، دار المأمون للترجمة والنشر ، ط1، بغداد، العراق، 2013م، ص130

[14] محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ص399

[15] نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب(دراسة معجمية)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2009م، ص145

[16] إميل بديع يعقوب، ميشال عاصي: المعجم المفصل في اللغة والأدب، مج2، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1987م، ص1306.

[17] مجموعة من المؤلفين: المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات(انجليزي- فرنسي- عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدار البيضاء، 2002م، ص43.

[18] جيرالد برنس: قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، ط1، القاهرة، 2003م، ص43.

[19] السيد الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ص211.

[20] إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، 1986م، ص406.

[21] مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، لبنان، 1984م، ص433.

[22] سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت، لبنان، 1985م، ص ص 228، 229.

[23] أحمد مطلوب: معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1989م، ص439.

[24] أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان،، 2001م، ص ص 444، 445.

[25] غازي طليمات، عرفان الاشقر: تاريخ الادب العربي "الادب الجاهلي قضاياه. اغراضه. اعلامه. فنونه"، مكتبة الايمان، ط1، دمشق، سوريا، 1992م، ص63

[26] المرجع نفسه، ص ص103، 104

[27] المرجع السابق، ص ص 104، 105.

[28] محمد زكريا عناني: تاريخ الادب الاندلسي، دار المعرفة الجامعية، 1999م، ص40

[29] ابن خفاجة: الديوان، تح: عبد الله سندة، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2006م، ص07

[30] عبد العزيز محمد عيسى: الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، مصر، ص117.

[31] جميلة شحادة الخوري: الطبيعة في الشعر الاندلسي، رسالة مقدمة لنيل شهادة استاذ في العلوم، الجامعة الامريكية، بيروت، 1946م، ص18

[32] مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2012م، ص740.

[33] عبد العزيز محمد عيسى: الأدب العربي في الأندلس، مرجع سابق، ص81

[34] مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مرجع سابق، ص737

[35] أحمد ضيف: بلاغة العرب في الاندلس، مطبعة مصر، ط1، 1924م، ص36.

[36] إميليوغرسية غومس، داماسوألونسو، ماریاخیسوسبیجیرا، ثلاث دراسات عن الشعر العربي، تر تق: محمود على مكي، المجلس الاعلى للثقافة، 1999م، ص53

[37] مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2000م، ص229

[38] مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مرجع سابق، ص 735.

[39] عبد العزيز محمد عيسى: الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، مصر، ص118

[40] المرجع نفسه، ص118.

[41] مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مرجع سابق، ص689.

[42] هو إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة، وكنيته أبو اسحق. ولد سنة 451هـ بالأندلس.

[43] باقر سماكة: التجديد في الادب الاندلسي، مطبعة الايمان، بغداد، 1971م، ص123

[44] أحمد ضيف: بلاغة العرب في الاندلس، مرجع سابق، ص 191

[45] بومدين كروم: الطبيعة في شعر ابن خفاجة الاندلسي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة دمشق، دمشق، 1983م، ص126

[46]عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، منشورات دار الشرق، بيروت، 1985م، ص190

[47] بومدين كروم: الطبيعة في شعر ابن خفاجة الاندلسي، مرجع سابق، ص ص 129، 130

[48] عبد العزيز محمد عيسى: الأدب العربي في الأندلس، مرجع سابق، ص124

[49] احمد ضيف: بلاغة العرب في الاندلس، مرجع سابق، ص195

[50] عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي، ج1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، القاهرة، مصر، 1949م، ص ص226

[51] عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي، ج1، مرجع سابق، ص ص 59 ، 60

[52] عمر الدقاق: ملامح الشعر الاندلسي، مرجع سابق، ص202

[53] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص ص 05، 06

[54] باقر سماكة: التجديد في الادب الاندلسي، مرجع سابق، ص ص 35، 36

[55] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص ص 217، 218

[56]باقر سماكة: التجديد في الادب الاندلسي، مرجع سابق، ص 126.

[57] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص ص 148، 149

[58] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص ص 18، 19

[59] احمد ضيف: بلاغة العرب في الاندلس، مرجع سابق، ص193

[60] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص ص 79،80

[61] عمر الدقاق: ملامح الشعر الاندلسي، مرجع سابق، ص ص 198، 199

[62]المرجع السابق، ص199

[63]المرجع السابق، ص ص199، 200

[64]المرجع نفسه، ص ص 207،208.

[65] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص40.

[66] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص131

[67] عبد العزيز محمد عيسى: الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، مصر، ص120

[68] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص13

[69] ابن خفاجة: الديوان، مصدر سابق، ص207

[70]المصدر نفسه، ص18

[71]المصدر السابق، ص17

[72] عبد العزيز عتيق: القاضي الجرجاني والنقد الادبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م، ص387

[73] ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص133

[74]المرجع نفسه، ص ص 285، 286

[75]المرجع نفسه، ص11

[76]المصدر السابق، ص127

[77]المصدر السابق، ص139

[78] عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، 1974م، ص64

[79]الآمدي الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1965م، ص191

[80]ابن خفاجة الاندلسي: الديوان، مصدر سابق، ص243

[81]المصدر السابق، ص57

6.قائمة المصادر والمراجع:

المصادر

- ✓ ابن خفاجة: الديوان، تح: عبد الله سندة، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2006م

المراجع

- ✓ إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، 1986م
- ✓ ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مج4، دار صادر، بيروت, لبنان
- ✓ ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مج 9، دار صادر، بيروت، لبنان
- ✓ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979م
- ✓ أبو نصر الفارابي: الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرق، ط2، بيروت، 1990م
- ✓ أحمد ضيف: بلاغة العرب في الأندلس، مطبعة مصر، ط1، 1924م
- ✓ أحمد مطلوب: معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1989م
- ✓ أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان،، 2001م
- ✓ الآمدي الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1965م
- ✓ إميل بديع يعقوب، ميشال عاصي: المعجم المفصل في اللغة والأدب، مج2، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1987م
- ✓ إميليوغرسية غومس، داماسوألونسو، ماریاخیسوسبیجیرا، ثلاث دراسات عن الشعر العربي، تر تق: محمود على مكي، المجلس الأعلى للثقافة، 1999م
- ✓ باقر سماكة: التجديد في الأدب الأندلسي، مطبعة الإيمان، بغداد، 1971م
- ✓ تزيفتان تودوروف: الشعرية، تر: شكري المبخوت، رجاء سلامة، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1987م

- ✓ جميلة شحادة الخوري: الطبيعة في الشعر الأندلسي، رسالة مقدمة لنيل شهادة أستاذ في العلوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1946م
- ✓ جيرالد برنس: المصطلح السردي(معجم مصطلحات)، تر: عابد خزندار، مر تق: محمد بريرى، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2003م
- ✓ جيرالد برنس: قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، ط1، القاهرة، 2003م
- ✓ الخليل بن احمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003م
- ✓ سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت، لبنان، 1985م
- ✓ السيد الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير
- ✓ عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب
- ✓ عبد العزيز عتيق: القاضي الجرجاني والنقد الادبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م
- ✓ عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، 1974م
- ✓ عبد العزيز محمد عيسى: الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، مصر
- ✓ عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي، ج1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، 1949م
- ✓ عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، منشورات دار الشرق، بيروت، 1985م
- ✓ غازي طليمات، عرفان الأشقر: تاريخ الأدب العربي "الأدب الجاهلي قضاياه. أغراضه. أعلامه. فنونه"، مكتبة الإيمان، ط1، دمشق، سوريا، 1992م
- ✓ الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: انس محمد الشامي، زكريا جابر احمد، دار الحديث، القاهرة، 2008م
- ✓ كامل عويد العامري: معجم النقد الأدبي، دار المأمون للترجمة والنشر ، ط1، بغداد، العراق، 2013م
- ✓ مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، لبنان، 1984م
- ✓ إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، الجمهورية العربية المصرية، 2004م
- ✓ مجموعة من المؤلفين: المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات(انجليزي- فرنسي- عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدار البيضاء، 2002م
- ✓ محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1999م
- ✓ محمد زكريا عناني: تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، 1999م
- ✓ محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان
- ✓ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2000م

- ✓ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2012م
- ✓ نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب(دراسة معجمية)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2009م
- ✓ يوسف وغليسي: الشعريات والسرديات(قراءة اصطلاحية في الحدود والمفاهيم)، منشورات مخبر السرد العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر